حضور وجه إديت شتاين Edith Stein
في رسالة البابا يوحنّا بولس الثاني
«الإيمان والعقل»

الدكتور جاد حاتم*

أ - ليس من قَبيل المصادفة أن يكون البابا يوحنّا بولس الثاني قد وجّه مؤخّرًا رسالتَيْن متقاربتَيْن إلى العالم المسيحيّ، لا يبعد تاريخ صدور الأولى عن الثانية شهرًا من الزمن. فالرسالة الجامعة حول علاقة الإيمان بالعقل، التي وصفت تلك العلاقة بينما بأنّها رباط صداقة، صدرت في ١٤ أيلول/سبتمبر ١٩٩٨، وسبقت بقليل إعلان قداسة امرأة فيلسوف هي إديت شتاين في الحادي عشر من تشرين الأوّل/أكتوبر، لكأنّ الحدث الأوّل وجد قاعدته وتبريره في الحدث الثاني. والرسالة الأولى الجامعة تُعدّ إديت شتاين من بين الذين كان للعلاقة المذكورة أعلاه صدًى إيجابيّ عندهم. يقول البابا: «ومن الواضح أنّني عندما أذكر هؤلاء المؤلّفين الذين يمكن أن أضيف إليهم آخرين، لا أريد أن أوافق على جميع ملامح فكرهم، بل أن أورد فقط نماذج بليغة من نمط في البحث الفلسفيّ استفاد كثيرًا من مقارنته بمعطيات الإيمان. هناك أمر أكيد: إنّ التنبّه للمسيرة الروحيّة التي حقّقها هؤلاء المعلّمون، لا يمكن إلّا أن يدعم التقدّم في

(*) أستاذ ومدير قسم الفلسفة في كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة في جامعة القدّيس يوسف، بيروت.

البحث عن الحقيقة بتطويع نتائجها لخدمة الإنسان (ف ٧٤). ولا شكّ في أنّ هذا التنبّه تتخيّله ضروريًّا عندما يتعلّق الأمر بقدّيسة من القدّيسات».

إنّ الإشارة هذه إلى إديت شتاين برفقة تيُومَن ورُشْميني وماريتان وجِيلْسُون وسُولُوفْيِيف وفلُورنسكي وشايدَيف ولُوسَكِي يعطي الانطباع بأنّ شتاين هي حالة فريدة بين حالات أُخَر، مع أنّ الشعور الغالب هو أنّ تلاميذ توما الأكوينيّ لهم مكانة فضلى في الجانب الغربيّ.

ب - رأيي أنّ حضور إديت شتاين في الرسالة الجامعة يتجاوز هذا السرد السريع، وهو يفسّر المداخل المتنوّعة التي تقود إلى فكر البابا. باديء ذي بدء، هناك ضرورة الانتقال من الظاهرة (phénomène) إلى الأصل (fondement) (ف ٨٣) الذي يوصي به البابا، وهذا البرنامج حقّقته إديت شتاين في انتقالها من الظاهريّة إلى الميتافيزيقيا. وإلى ذلك، إنّ حضور شتاين يلقي الضوء على عودة الأنطولوجيا، وهو أمر تتمنّى الوثيقة أن يصبح واقعًا (ف ٩٠، ٩٧)، ويلقي الضوء كذلك على اللجوء إلى المفارِقات (transcendantaux) التي توصي الوثيقة باستعمالها (ف ٢١، ٥٦، ٨٣، ١٠٣).

إنّنا نتبيّن هنا العناصر التي استطاعت أن تجذب البابا، إلّا أنّ هناك أمرًا إضافيًّا. فنغمة الرسالة الأساسيّة تبدو لي متأثّرة بإديت شتاين في تشديدها على «البحث عن المعنى الذي يلج أبدًا في قلب الإنسان، والجواب عن هذه الأسئلة هو الذي يوجّه الحياة» (ف ١). إنّ الشكّ في معنى الحياة يُستخرج من اختبار الجميع الوجوديّ، حيث إنّ الألم والموت يكوّنان أفق التساؤل عن معنى الحياة والخلود (ف ٢٦)، هذا.. المعنى الذي يفتح الطريق أمام «طلب مطلقيّة قادرة على أن تؤدّي جوابًا ومعنى لمطلبه» (ف ٢٧). قناعة البابا هي أنّ هذا المعنى لا يُعطى بالكامل على مستوى المثوليّة (immanence)، إذ إنّه يتطلّب أخذ سرّ التجسّد بعين الاعتبار: «الواقع أنّ صميم جوهر الله وصميم جوهر الإنسان يصبحان في

متناول العقل: ففي سرّ الكلمة المتجسّد تُصان كلٌّ من الطبيعة الإلهيّة والطبيعة البشريّة وتبقى لكلٍّ منهما استقلاليّتها، وتتجلّى في الوقت نفسه، الصلة الفريدة في علاقتهما المتبادلة من غير اختلاطٍ ولا تشويش» (ف ٨٠). ويمكن توضيح ذلك مع شتاين: «ففي المسيح لا يسكن كمالُ الألوهة وحسب، بل كمال الإنسانيّة أيضًا»[١]. «فالإنسان الأوّل، شأنه شأن كلّ خليقة، له مثاله الأصليّ في الكلمة الإلهيّة. وهو بصفة كونه شخصًا روحيًّا، على ما هو كلّ إنسان، صورة الله الأكمل من كلّ الخلائق التي لا شخصيّة لها، وهو يستطيع أن يتّحد اتّحادًا شخصيًّا بالله»[٢]. وإذا كان الإنسان الأوّل يمتلك مفتاح كلّ معنى إنسانيّ، فهذا مردّه إلى أنّنا نجد معنى كلّ واحدٍ مدوّنًا في كلمة الله، بالاستناد إلى العلاقات البليغة المعاني في مخطّط الخلق الإلهيّ. والواقع أنّ الكلمة خلق الإنسان بحسب الصورة المسيحانيّة التي كان يمتلكها لنفسه[٣]. ونغميّة التجسّد ذات المسيحانيّة المركّزة (christomatique)، (بحسب لاهوت دانس سكوت)، لها صداها في الدستور المجمعيّ فرح ورجاء (ف ٢٢)، وذلك ما يطيب للبابا التذكير به (الإيمان والعقل، ف ٦٠).

وإنّه من الجدير بالملاحظة أنّ نغميّة لقاء المعنى الذاتيّ في المسيح، بالرغم من كونها وجوديّة أكثر منها ميتافيزيقيّة في رسالة البابا، لا تمنع التقارب من إديت شتاين. ففي أجمل صفحات الرسالة الجامعة، يصوّر البابا المسيح على أنّه نقطة حلّ وتحقيق لمطلبيّن: مطلب الحقيقة ومطلب شخص هو موضع ثقة (ف ٣١-٣٣). إلّا أنّ المسيح في نظر إديت شتاين، ليس فقط معنى المعاني والرأس الأسمى الذي منه تجد الغايات الفرديّة

---

(١) راجع - Edith Stein, *L'être fini et l'être éternel*, G. Casella et F.A. Viallet, Louvain - Paris, Nawvelaerts, 1972.

(٢) المرجع نفسه، ص ٥١٨.

(٣) المرجع نفسه، ص ٥١٩، راجع في هذا السياق إسهامي في: B. Forthomme et J. Hatem, *Hospitalité et signification: Jeanne - Antide Thouret et Edith Stein*, Paris, Cariscript, 1996.

تماسكها[٤]، بل إنّه أيضًا ذلك الكائن الذي يضع فيه الكائن المحدود ثقته بوجه مطلق. ففي مقابل هايدغر الذي يرى أنّ الإنسان في الكائن، تعلن إديت شتاين أنّ الإنسان يشعر بأنّه محمول في الكائن: «ففي وجودي، أجد كائنًا آخر ليس خاصّتي، إلّا أنّه سنَدُ وقاعدة وجودي الذي لا يمتلك سندًا ولا قاعدة»[٥]. إنّ الضمانة الأنطولوجيّة توفّر الثقة بالخالق.

ج - إنّ الواقع الذي تنطلق منه الرسالة الجامعة، والذي يحدّد وجهتها، وهي تبدو في الغالب جدليّةً تحت غطاءٍ تفاهميّ إيجابيّ، هو واقع العالم المعاصر الجاحد الذي طوّر فكرًا يجد لذّته في حلوليّةٍ مجرّدة. في هذا السياق، تبدو تجربة إديت شتاين مثاليّة، إذ إنّ مرحلة جحودها الله، على ما أشار إليه البابا في عظة التطويب (ف ٦)، وفي عظة إعلان القداسة (ف ٥)، بوصفها امتحانًا للنفس، تبدو مطابقة لروح العصر. إلّا أنّ الالتفاف على الذات في المطابقة مع العالم لم يخنق مطلب الحقيقة الذي كان، على حدّ قول إديت، صلاتَها الوحيدة. وهذه المقولة ذكرها البابا في عظة التطويب (ف ٦)، وتردّد الرسالةُ الجامعة صداها بوجه من الوجوه حيث يقول البابا: «إنّ مطلب الحقيقة هو جزء من طبيعة الإنسان نفسها» (ف ٣). وبالعودة إلى الماضي، نجد أنّ إديت شتاين لاحظت التطابق بين هذا المطلب والسعي إلى الله، لأنّ مَن يسعى إلى الحقيقة، على حدّ قولها المأثور، يسعى إلى الله حتّى ولو كان يجهله، وهذا القول يذكره البابا في عظة إعلان القداسة (ف ٥). وأيّ حقيقة معنيّة هنا؟ ليست أوّلًا الحقيقة التي تُتوّج العلوم الدقيقة، أو تلك الحقيقة التي تظهر فيها الفرديّة الساعية إلى توضيح الأمور، حيث تقوم بصياغة المعنى عن طريق المنهج الذي يحرّكها. فالحقيقة المقصودة هنا هي التي تقوم صحّتها على المطلق الذي تبتغيه. والرسالة الجامعة التي تقرّ الإقرار التامّ بهذا الاتّجاه (ف ٢٧) إنّما توصّل فيه قدرةَ العقل

(٤) المرجع السابق، ص ١١٨.
(٥) المرجع نفسه، ص ٦٤.

على تجاوز ما هو حادث، أو تجاوز المحدود نحو ترسيخ اللامحدود (ف ٢٤)، ممّا يحيلنا على مشارف العنوان الإضافيّ في مؤلَّف إديت شتاين الرئيسيّ: **الكائن المحدود والكائن الأزليّ. محاولة للوصول إلى معنى الكائن**، حيث تكتب قائلة: «إنّنا ارتفعنا من حالتنا كمخلوقات إلى الخالق، ومن المحدود والمشروط إلى اللامحدود واللامشروط، وهما لازمان بوصفهما الخالق والمثال. ولقد وصلنا أيضًا إلى حدود الإيضاحات التي نستطيع اكتسابها عن الخالق، انطلاقًا من المخلوقات، حتّى نرتفع إلى الوحي الذي كشف به الله عن ذاته. واللافت النظر هو الارتفاع الأسمى هذا إلى الكلمة الإلهيّة التي يبدو لي أنّ معناها المنهجيّ يقوم في الجهد اللازم الذي لا بدّ من أن تشرع فيه الفلسفة (لا اللاهوت بحسب ما تشدّد عليه إديت) للحصول على مزيد من المضمون (يوفّره الوحي بالتمام). وهكذا، فإنّ فلسفة إديت لا تخلي المكان للّاهوت، كما لو أنّ العقل، إذ يكون قد اعترف بمحدوديّته، يتوارى أمام كلمة الإيمان. وحديثها يتوم بالأحرى، وبالتطابق مع تصوّرها لفلسفة مسيحيّة، على «استجماع كلّ ما يجعله العقلُ الطبيعيّ والوحي في متناول إدراكنا ضمن بوتقة توليفيّة واحدة»(٦).

د - إنّ رسالة البابا الجامعة تعلن أنّ «الشهيد هو، في الواقع، الشاهد الأصدق على حقيقة الوجود. فهو يعلم أنّه وَجَد، في لقائه يسوع المسيح، حقيقة حياته، وليس من شيء ولا من كائن بإمكانه أن ينتزع منه هذا اليقين» (ف ٣٢). والحقيقة أنّ هذا الكلام يشمل بالضرورة قدّيستنا إديت شتاين التي لم تغسل حُلّتها ولم تُبيّضها بدم الحمل وحسب (راجع رؤ ٧، ١٤، وقد ذكر البابا يوحنّا بولس الثاني هذا الأمر فكرةً رئيسيّةً في عظة التطويب)، بل إنّها ختمت قلبها وفكرها بشعار الصليب.

---

(٦) *Phénoménologie et Philosophie chrétienne*, Ph. Secretan, Paris, Cerf, 1987, p. 146.

صدر عن دار المشرق